بول ابي درغام
abidergham@yahoo.com
www.esoteric-lebanon.org

خفايا علوم الإيزوتيريك

الرمز موجود حيث الفكر موجود
الرمز بلاغة في التعبير إذ يطوي معاني وأبعادا كبيرة
الرمز محدودية تشير إلى اللامحدود.

الرموز

هل تستر المعرفة أم تكشف أسرارها؟

الرمزية، وسيلة تطال غالبية تصرفات واهتمامات حياتنا اليومية سواء كنا واعين لهذا الأمر أم غير واعين له. الرموز تجتاح حياة الإنسان اليومية بدءاً بالقراءة والكتابة والتصوير وصولاً إلى الرموز المستعملة للتعبير عن العقائد الإيمانية وعلاقة الإنسان بالأبعاد الروحية، مروراً بكافة أشكال الرموز في العمليات الحسابية خلال الأعمال اليومية.

ونرى علوم الإيزوتيريك تستفيض بشرح الغوامض والخفايا بواسطة رمزية الأرقام والألوان والتعابير البليغة في مؤلفاتها. لقد تناولت المواضيع الأكثر شمولية وعمقاً، وعالجت ايضا أدق التفاصيل الحياتية والخاصة، وكشفت النقاب عن حقيقة أمور تتخطى ما هو شائع ومتعارف عليه، ووسعت المدارك عن طريق ربط ظاهر الممارسات والمألوف بحقيقة الإنسان الباطنية.

إن بحثنا هذا سيتناول المفهوم العام للرموز، والهدف من وجودها، ملقين الضوء على الجانب الخاص بدور الرموز في تعريف الإنسان إلى حقيقته وهدف وجوده. يتضمن هذا البحث بعض الرموز ومعانيها الظاهرة والخافية لتقريب المفاهيم، إنما ليس الهدف شرح معنى الرموز ودلالتها أكثر منه إلقاء الضوء على أصل الرموز وحقيقتها وعلى الدور التي لعبته في الماضي، وكيف تبدلت وتطورت عبر العصور، محاولين بذلك استشفاف مستقبل الرموز في التطور البشري وذلك عن طريق المفاهيم الايزوتيريكية.

معنى الرمز

يعرّف قاموس الفلسفة الرمز بأنه صورة او شيء يمثل أمراً مجرداً. أما موسوعة بريتانيكا فتعتبر الرمز عنصراً للتواصل يشكل مختصراً أو ملخصاً عن فكرة ما، عن شخص، أو عن مجموعة.

وتقسم الرموز إلى ثلاثة اقسام رئيسية: الرموز التصويرية، الرموز التي يُعبَّر عنها بالحركات والإشارات التعبيرية، والرموز الصوتية.

تشمل الرموز التصويرية الأشكال الطبيعية واشكال هندسية كما تتضمن الوانا، حروفاً وارقاماً. بعض الأديان ترمز بالألوان إلى مختلف فصول السنة الطقسية، اديان أخرى تستعمل رمزية الألوان في تصويرها للكون، وشعوب المايا مثلاً ترمز بالألوان إلى الاتجاهات الأربعة شمال جنوب شرق وغرب. أما في الأبجدية اليونانية والعبرية فتتداخل رموز الأحرف والأرقام بحيث أن كل من احرف الأبجدية له دلالة أو مضمون رقمي.

الرموز الصوتية تتمثل إما بالموسيقى أو بصوت الإنسان نفسه، وصولا إلى الرموز الصوتية التي تتفاعل مع الكيان اللامادي في الإنسان وتسمى مانترا (Mantra) .

الرموز عن طريق الحركات التعبيرية تتمثل بحركات الأيدي في الطقوس المختلفة وبوضعية الجسد ايضا، كأن يكون الإنسان واقفاً جالساً أو راكعاً. حتى مسار الشخص عند ذهابه لتأدية الطقوس أو خلال هذه الطقوس يحمل رمزية معينة. فالسير في خط مستقيم أو الدوران حول مراكز العبادة أو التأمل وحتى المسار العمودي كالصعود في جبل لتأدية طقوس العبادة يحمل رمزية الطريق المقدس.

أنواع الرموز السابقة الذكر تجتمع كلها في تأدية طقوس معينة. من كلام إلى موسيقى، إلى ألوان أو حركات تعبيرية وانغام وروائح. كلها تجتمع وتكون جواً ملائماً للتأمل.

الرمز والمعرفة

ما تقدم هو تعريف لأنواع الرموز المختلفة لدى الشعوب القديمة والحديثة.

لقد لعب الرمز على مر العصور دورين أساسيين تمثلا إما في إخفاء المعرفة وحجبها وإما في كشف أسرارها إذا ما توافرت مفاتيح ذلك الرمز.

في ضوء ما تقدم، يفيد كتاب الايزوتيريك "علم المعرفة ومعرفة العلم" بالتالي:

«وكأن يد القدر بعد اندثار الاتلنتيد، خبأت المعارف التي توصّل إليها إنسان تلك الأزمان

مخافة من أن تقع في متناول من لا يستوعبها أو يسيء استعمالها. فأخفى الحكماء المعلومات والحقائق في رموز وأساطير وفي اقاصيص وتعابير دالة، لا يستطيع أن يقف على اسرار معانيها إلا ذوو العقول المستنيرة».

إن الرموز الأولية ذات الدلالة المقدسة عند الأقدمين تمثلت بأشكال هندسية استوحوها من مراقبتهم للفلك والأجرام السماوية واشكال توزيعها وتشكلها في قبة السماء. والمخطوطات القديمة التي تتناول عملية الخلق بكافة أشكالها الروحية والمادية، تبدأ بدائرة، نقطة، مثلث، ومربع، الخ، وترتبط هذه الأشكال بأرقام من الواحد إلى التسعة.

هكذا ابتدات أبجدية الرموز على الأرض ومنها تشعبت وانطلقت أشكال وأعداد لا تحصى من الرموز، منها ما بقي مرتبطاً بالأصل ومنها ما شرد وابتعد عن هدف وجود الرمز كتمثيل للحقيقة في عالم الواقع.

وسيلة تلخيص واختصار

وجميع هذه المعارف مستمدة من المعرفة الأم، من حقيقة الإنسان وقدره، من الكنز الذي أودعه الله في الإنسان وما زال يحثّه ليكتشفه ويعي كنهه. من معرفة باطن الإنسان، استمدت معرفة العصور، ومن ألوانها اكتست الحضارات الإنسانية المختلفة بحلل تتناسب وكل عصر من العصور.

كانت الرموز في بدء وجودها وسيلة لتلخيص واختصار مبادئ واسس هذه المعرفة. لكن، بعد أن تاه الإنسان عن الدرب القويم، أصبحت الرموز وسيلة لحفظ المعرفة وإخفائها عن العابثين. أما اليوم، وبعد أن حان وقت كشف المعرفة وأسرارها بما يتناسب والمستوى الحالي للوعي الجماعي، ابتدات علوم الإيزوتيريك تقدّم مفاتيح هذه الرموز. مفاتيح تكشف الحقائق المستترة في أبعاد الرموز المختلفة وتجعل منها وسيلة لشرح مفاهيم أبعد واعمق.

لغة خاصة

الحكماء العارفون يكشفون أن لهذه المعرفة القديمة لغة خاصة بها، لغة موحدة حوت مضمون هذه المعرفة، أطلقوا عليها اسم اللغة الكونية UNIVERSAL LANGUAGE .

هذه اللغة كانت مؤلفة من رموز. رموز تفهمها كل أمم وشعوب العالم القديم، مثلما يفهم اليوم العالم بأسره الأرقام 1 2 3 ، و مثلما يُفهم أيضاً معنى الرمز على سبيل المثال. لهذه اللغة أبعاد رمزية سبع. أما اليوم فأسرار هذه اللغة ومفاتيحها السبع هي في يد العارفين والمستنيرين القلائل الذين يعملون على رفع مستوى البشرية لمراقي معرفة هذه اللغة ورموزها.

إن حقيقة لغة الرموز ومضمونها لا تنكشف إلا لمن بلغ الحكمة التي تخوّله امتلاك "مفتاح المعرفة" كما ورد في كتاب الإيزوتيريك "علم المعرفة ومعرفة العلم».

ما تقدّم يجعلنا نستنتج أن الرموز المختلفة عند الحضارات كافة تعود إلى هذه اللغة، لغة المعرفة الواحدة.

وحدة المصدر

أمثلة كثيرة تثبت وحدة مصدر رموز الشعوب المختلفة، وانبثاقها من سابقاتها. فقصة موسى وابنة فرعون ومياه النيل مستوحاة من قصة الملك البابلي سارغون. كما ومفهوم الأثير أو النار الحية فهو موجود في كافة رموز الشعوب القديمة (النار في شكلها الأولي قبل ان تلامس الأرض). وهي النار المقدسة عند الزردشتيين وبرق الخصب Cybele، نار مشعل ابولو، وال PHTA RA عند المصريين والسنة النار فوق رؤوس تلاميذ السيد المسيح والنار في عليقة موسى وهي النور الكوكبي عند جماعة الصليب الوردي، أي ROSICRUCIANS الخ.. وهذه جميعها ترمز إلى القوهات fohat بالسنسكريتية، أو التعبير الأولي للنار الكونية.

على مر العصور، تبدلت مفاهيم الرموز وفقدت جوهر دلالتها. في بعض الأحيان سقطت رموز وظهرت رموز أخرى تعبّر عن معتقدات تغيّر مفهومها عند أصحابها. فهناك مراجع تفيد بأن رفع الأيدي أو الابتهال خلال الصلاة يرمز إلى

التقرب من العالم السماوي أو العالم المقدس.. فعلى غرار تحوّل المعرفة إلى طقوس وشعائر، هكذا يتبدّل معنى الرمز عبر العصور ويفقد حقيقة دلالته. ولعل ما قاله الباحث POCOCKE يعبّر عن فقدان الرموز لحقيقة دلالتها:

«الميثولوجيا تعتبر اليوم روايات خرافية بمقدار عدم فهمنا لها، وحقيقة بمقدار ما كانت يوماً مفهومة".

مما لا شك فيه أن عصر الوحدة على جميع الأصعدة قادم لا محال. فبدات تباشيره تظهر ثقافياً، تجارياً، سياسياً وجغرافياً: ودون شك فكرياً وإنسانياً في المستقبل القريب. فستكشف مفاهيم جديدة للرموز القديمة وستكتشف مخطوطات قديمة كما يكشف الإيزوتيريك، تكون بمثابة احد مفاتيح المعرفة للمرحلة المقبلة من التطور.

النظرة إلى الرموز

كيف ننظر اليوم إلى الرموز، وهنا نقصد الرموز التي تعبر عن الجانب الباطني - الروحي في الإنسان. هل نحن بحاجة إلى الرمز في حياتنا التطبيقية؟ هل ستقدم مفاتيح الرموز التي ستثبت تسلسل انبثاق الرموز من بعضها وستكشف وحدة مصدرها؟

باعتبار أن الإيزوتيريك منهج تطبيقي عملي، فهو يمثل المسار المعاكس لترميز المعرفة. أي انه يكشف مضمون الرموز ويضعها في إطار تطبيقي يوصل الإنسان إلى تحقيق التقدم عمليا بعيداً عن التنظير، وإلا لتحولت المعرفة التطبيقية إلى مجرّد عادات وطقوس حيث يسقط الفهم من التطبيق.

أما مستقبل الرمز، فهو موجود طالما الإنسان قائم في عالم الازدواجية.

فالرمز هو وليد الفكر في عالم النفس وبالفكر تُدرك أبعاد الرمز، إنما ذلك لا يتم إلا عن طريق فكر منفتح وحيادي.

إن مستقبل وجود الرمز سيكون، ليس لإخفاء المعرفة بل لشرحها وتلخيصها واختصارها عبر رسوم بيانية تفسيرية أكثر منها رمزية، وما مجموعة كتب الايزوتيريك التي كل واحد منها يتخصص بشرح موضوع واحد من منهج المعرفة، كاللون والرقم، إلى الذاكرة فالذكاء... ناهيكم عن المخطوطات الإيزوتيريكية التي لم يحن وقت نشرها بعد، وما كل ذلك سوى بداية إزاحة الستارة عن حقيقة مضمون الرموز وارتباطها ببعضها وكشف النقاب عن وحدة مصدرها.

الرمز شكل يعبر عن اللاشكل

الرمز لون، ومدلوله مستوى من التذبذب والوعي

الرمز نغم، وحقيقة النغم حركة

الرمز عدد، ومعنى الرمز كامن في الرقم

الرمز كساء المعرفة في بعد الأرض

الرمز هو الذرة ومدلوله ذبذبة

الرمز هو الكلمة وما يرمز إليه هو المعنى، معنى الكلمة

الرمز رداء الحقيقة في عالم الواقع

والرمز وهم من منظور الحقيقة التي يرمز إليها

وتبقى الكلمة الإنسان الرمز الأكبر ومعناه الوعي – الحقيقة المجسدة.